جدلية التطوير فى القصيدة العامية المصرية

بين التأويل والتحليل حتى أواخر القرن الحادى والعشرين من منظور تاريخى

رؤية نقدية بقلم :

ناجى عبد المنعم

الشعر لغة

هو تعبير لفظى عن موقف ما يستقى جَوَّه النفسى من مَعِين المتغيرات السياسية والإجتماعية والثقافية ليكون فى النهاية

لسان حال المجتمع ، والشعر من الشعور والإحساس على اختلاف درجاته عند المبدع ولا يكون الشعرُ شعرا إلا إذا صاغه الشاعر بأسلوب أدبى يعتمد أساسا على الصورتين الشعريتين البسيطة والمركبة

توطئة

كان الشعر لسان حال المجتمع المصرى وأداة التعبير الوحيدة مند عام 1800 وحتى نهايات عام 1900 يرصد تحولات وتغيرات المجتمع سياسيا وفكريا واجتماعيا فمشى حثيثا يقتفى أثر النبض العام للشارع المصرى حتى قامت الثورة العرابية بقيادة أحمد عرابى عام 1882 على شاعر الشعب والأمة - وليس شاعر الثورة العرابية وخطيبها كما اطلقوا عليه - تحجيما لدوره - " عبد الله النديم " الذى صاغ أشعاره تأريخا لهذه المرحلة الفاصلة فى تاريخ مصر بحثا عن الحرية والتخلص من الإحتلال حتى أنه فر هاربا من السلطة واختبأ فى بيوت الشعب لأكثر من ثمانى سنوات لم يخنه أحد بالتبليغ عنه ولم يخذله أحد بحُسْن الضيافة لعلمهم بقدرته وقيمته وقيمة أشعاره التى كانت سببا رئيسيا فى إنجاح الثورة العرابية ورغم أن أشعاره كانت تحتل منطقة وسطى على سبيل التطوير إلا أنه عَبَّر عن هذه المرحلة بطريقة مثلى كان من شأنها أن تناقل أشعاره الشعب المصرى وحفظها عن ظهر قلب وكانت تشكل تهديدا مباشرا

للسلطة المحتله أقوى من المدافع من خلال مجلته التى أسسها " التنكيت والتبكيت " ومن بعدها مجلة الأستاذ ويعتبر عبد الله النديم خطيبا مفوها للثورة إلى جانب شاعريته الأمر الذى سَهَّل عليه وضع العديد من المبادىء لتطور شعر العامية والزجل فى مصر ا

بداية تطور القصيدة العامية فى مصر

" أخشى ماأخشاه على الفصحى من عامية بيرم التونسى "
هكذا أعلنها أمير الشعراء أحمد بك شوقى صراحة وأعلن مدى تخوفه من قوة وصلابة شعر بيرم الذى بدأ يطور نفسه ولغته حتى أنه أصبح مصدرا لإزعاج شعراء الفصحى الكبار فقد وُلِدَت القصيدة العامية الجديدة وأخذت طريقها نحو التطور على يد بيرم التونسى الذى نبغ فى فن الزجل والشعر البسيط الذى يتِّسم بالمباشرة والتقريرية أحيانا والذى مزج ما بين عمق الفكر وبساطة اللفظ والهم القومى يقول بيرم

. يامصرى وانت اللى هاممنى من دون الكل

هزيل ويحسبك الجاهل عيان بالسل

من دى الكيوف الى تصبر على كتر الذل

ونمت والعالم فايق قوم بص وطل

إستخدم بيرم التونسى معمارية خاصة جدا فى بناء النص الشعرى يؤرخ لبداية تطور النص العامى عموما بما قبله وما بعده وقد جمع بيرم بين التقريرية المباشرة ليُسْر وسهولة الإتصال المباشر بالمتلقى العادى وعمق الفكر من خلال الترميز والإسقاطات والتعامل مع التابوهات فى النص ليفتح بابا جديدا لعالمية التناول للنص دون الإقتصار على جمهور محدد ولعل أشهر قصائده التى كتبها بالفصحى شكلا وبالعامية مضمونا المجلس البلدى فقال فيها ا

هوى حبيب يسمى المجلس البلدى

امشى واكتم انفاسى مخافة ان

يعدها عامل المجلس البلدى

ماشرد النوم عن جفنى القريح سوى

طيف الخيال خيال المجلس البلدى

حتى قال

كأن أمى بلَّ الله تربتها

أوصت فقالت أخوك المجلس البلدى

يابائع الفجل بالمليم واحدة

كم للعيال وكم للمجلس البلدى

فقد أظهر مساوئ وفساد النظام الإدارى المحلى لهذه الفترة بشعره اللاذع ولعل افضل ما أسس به بيرم على سبيل التطوير للنص هو المزج بين اللهجة الساخرة وما تحتاجه من قواعد خاصة من أساسيات الشعر كالموسيقى المناسبة والصورة الشعرية الموائمة وقد اهتم بيرم بالشكل المباشر للنص والتقريرية الفجة ليترجم حال الشعب فى فترة ما إلا أنه أول من استخدم الصورة الشعرية الصريحة فى شعر العامية عندما قال : " شمس الأصيل ياعين دهبت خوص النيل " ومن هنا بدأت الصورة الشعرية تحتل مكانتها الطبيعية فى النص العامى الأمر الذى ألبس النص ثوبا جديدا من الجماليات المطلوبة ثورة يوليو 1952 تعيد اكتشاف أهمية القصيدة العامية المصرية

كانت مصر تئن تحت وطأة الإحتلال لفترة طويلة الأمر الذى كسا حياتها الإبداعية والحياتية والسياسية بنوع وحيد من الإبداع منتهاه المطالبة بالإستقلال والحرية على حساب جماليات النص ، ورغم أن هذه المرحلة كانت تعج بالكثير من رموز الفكر والثقافة سواء الأحياء منهم أَم من رحلوا وتركوا بصماتهم كطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وشوقى وحافظ وجاء من بعدهم الأبنودى وصلاح جاهين وفؤاد حداد ونجيب سرور وغيرهم وخرج من بينهم شعراء العامية الذين وجدوا أنفسهم بين شِقَى الرحى فى معركة أُجْبِروا عليها فدخلوا فيها رغما عنهم ما بين كبار شعراء اللغة العربية والمفكرين والفلاسفة والروائيين والمتغيرات السياسية الهائلة التى خلعت عن مصر ثوب الإحتلال والظلم وألبستها ثياب

الإستقلال والحرية والكرامة وكان الموج عاليا جدا على شعراء العامية فاستقل الكثير منهم مركب الأغنية ولاذوا بها لمجرد التنافس إلا أن الشعب العربى كله حسم القضية لصالح شعراء العامية وتفاعلوا معهم

وحفظوا أغنياتهم وتعايشوا معها فى أجواء الثورة واستثمر شعراء العامية الموقف واعتلوا منصة التتويج وطوروا فى إبداعاتهم الغنائية والشعرية حتى وقفوا جنبا إلى جنب ، إلى جوار الكبار من شعراء الضاد وتعتبر وقفة الشعب إلى جوار شعراء العامية وكُتَّاب الأغانى فى هذه المرحلة ميلادا جديدا وبداية جديدة لعهد التطوير والثورة على التقليدية وكسر تابوهات الكتابة والتنصل من تقليديتها ونبغ الكثيرون من شعراء العامية فى هذه الفتره بداية من الأبنودى ونجم وسرور ومرورا بماجد يوسف وابراهيم رضوان وسعدنى السلامونى وعبد الستار سليم وانتهاء بجيل أوائل الألفية الثالثة كمحمد الساعى ووليد مليجى وفتحى البريشى وطارق مايز ومحمد عطوة ..... الخ

الإستقرار الأمنى للبلاد يخلق شكلا جديدا للصراع من أجل التطوير

لعل انتقال السلطة إلى الحكام المصريين بعد الجلاء و نجاح حركة الضباط الأحرار فى ثورة يوليو1952 كان

من أهم الإستقرار الأمنى والنفسى لدى الشعراء الأمر الذى دفعهم تطوير النص العامى والإهتمام بالإبداع من

أجل الإبداع والمتعة العقلية والوجدانية فنبغ صلاح جاهين فى فن الرباعية تحديدا رغم أنه لم يترك بابا من أبواب الإبداع إلا وطرقه : يقول صلاح جاهين

العشب طاطا للنسيم ونخ

اخضر طرى مالوهشى فى الحسن اخ

عصفور عبيط انا غاوى بهجة وغنا

هاانزل هنا وانشاالله يهبرنى فخ

فقد استخدم أسلوبا تقريريا مباشرا مفعم بجو الفرح واللهو واللامبالاه من الخطر المتوقع بما يتناسب مع الجو النفسى العام للنص ثم يقول فى رباعية نعتبرها بداية التجديد والتطوير أيضا فى فن العامية

نصحتك يابنى لما صوتى اتنبح

ماتخافش من جنى ولا من شبح

وان هب فيك عفريت اساله

مادافعش عن نفسه ليه يوم م اندبح

فقد ختم جاهين رباعيته بالسؤال الإستنكارى ليضيف بعدا جديدا لقراءة النص بإشراك المتلقى العادى فى العملية الإبداعية والرباعية متماسكة لفظا وصورا وبناء بشكل لا يقبل الحذف والإضافة مما يدل على حالة الثبات بعد التجديد والتطوير باستخدام الأصوات وعلامات الترقيم وكل خصائص البناء

وننتقل إلى شاعر آخر من المجددين فى شعر العامية صاحب أهم ديوان صدر فى الفترة الأخيرة (ست الحزن والجمال) للشاعر ماجد يوسف الذى أدخل الصورة الشعرية المركبة فى النص العامى بشكل يفيض جمالا وروعة فى البناء وعملية الخلق الإبداعى والمعالجة فيقول فى قصيدة وخصايل نخل بتتباهى

(باسم الاله ابيس

العين عليها حارس

بحورس وبايزيس

من السيل والكوارث

ومن ست الخبيث

لحد النيل م يوصل

ويفيض على الجناب

والارض السودا تحبل

فقد استخدم الإسقاط والترميز وكسا النص بالجو النفسى الفرعونى ليصنع هارمونى رائع يضاف إلى عبقرية العامية المصرية بأسلوب سهل ممتنع بغير تكلف ولا ضبابية تدل على عمق الفكر والوصول إلى الهدف من أقصر الطرق بغير تعارض مع المتعتين العقلية والوجدانية بغير تجاوز لإحداهما على الأخرى

وقد ظهر فى مطلع القرن الحادى والعشرين واقتفاء لأثر مدارس الفن التشكيلى والمدارس الفلسفية ما يسمى بالمزج الروحى بين الواقعية والرمزية فى نص واحد لا يفارق أصول الشعر وقواعده الأساسية معتمدا على اللغة الجديدة عامية المثقفين وهى تعتمد على انتقاء المفردات وتحسين القاموس اللغوى لدى شاعر العامية تاركا وراءه الألفاظ الدارجة المستقاه من الفولكلور الشعبى

والأمثال الشعبية والقوما والدوبيت والكان وكان والإهتمام بمعمارية القصيدة العامية ذاتها فأصبح لكل شاعر قاموسه الخاص ومفرداته التى تميز إبداعاته دون غيره الأمر الذى زاد شاعر العامية المصرية صلابة فطوع اللغة لمصلحة النص بلوى عنان الكلمة ومنطقة اللامنطق بما لايضر بالنسق العام للنص فخلق جمهورا عريضا له من الأمة العربية كلها دون الإلتفات إلى خصوصية لهجات الشعوب بعدما وصل إلى القاسم المشترك بينهم فكتب اللغة التى يفهمها العالم العربى كله ولا أغالى إذا قلت إنه فتح بابا يطل على العالم لسهولة ترجمة أشعاره العامية بعدما وصلت إلى عامية المثقفين القريبة جدا من الفصحى

خاتمة

استخدمت الأديان السماوية الكثير من المفردات المتداولة فى العالم فاستلهمتها القصيدة العامية وطمعت نصوصها بمفردات الشعوب المتداولة كالمغربية والشامية والعراقية ففتحت الباب للمتلقى

العادى فى كل شعوب الوطن فتواصل معها الجمهور العربى فهما ودراسة وتذوقا وكسرت الحدود الجغرافية بين الدول وجعلت الإبداع لغة مشتركة بين الشعوب

وأقول أخيرا أن تطور القصيدة العامية واهتمامها بالشكل والمضمون فتح آفاقا جديدة للتنوير والتواصل بين الشعوب العربية فلعل هذا يكون سببا فى لمِّ الشمل واتحاد العالم العربى تحت لواء واحد هو الوحدة العربية

ناجى عبد المنعم

شاعر عامية وكاتب مسرح

رئيس مجلس إدارة

دار النيل والفرات للنشر والتوزيع